جامعة الانبار

كلية التربية للعلوم الإنسانية

القسم العلمي: اللغة العربية

المرحلة الدراسية: الاول

المادة : علوم القرآن

اسم التدريسي : أ.د. علي مطر الدليمي .

محاضرة مادة:

بسم الله الرحمن الرحيم

المادة التي نتناولها هذا العام الدراسي هي مادة علوم القرآن وتاريخه وكما تعرفون ذلك جميعاً فإن القرآن الكريم هو الكتاب الذي أنزله الله سبحانه وتعالى على نبينا محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) حيث يتناول هذا الكتاب الكريم المبادئ العامة للرسالة الإسلامية وما يرتبط بهذه الرسالة من عقائد وأحكام وأخلاق حيث يتناول النص القرآني الكريم هذه الجوانب ولكن وفق صياغة خاصة حيث جعل هذه الصياغة متسمة بجانبين هما الجانب العلمي والجانب الفني.

أما الجانب العلمي فيتناول كل ما رسمه الله سبحانه وتعالى لنا من مبادئ.

وأما الجانب الفني فيتناول الظاهرة الإعجازية التي تخص نبينا محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) بالنسبة إلى صياغة النص القرآني من حيث الفن وما يتضمنه من خصائص متنوعة نحدثكم عنها إن شاء الله في حينها.

المهم أن النص القرآني الكريم عندما نتناوله من زاوية علومه وتاريخه إنما نعني بذلك كل ما يرتبط بالقرآن الكريم من بدء نزوله مروراً بانتهائه وانتهاءً لما يتضمنه من

ظواهر وقضايا متنوعة يتصل بعضها بالواقع بما يتطلبه كل واحد منا من بعد معرفي يتعين علينا أن نتوفر عليه حتى أن نفهم ماذا يتضمن كتاب الله سبحانه وتعالى.

ومن الواضح أن كتاب الله سبحانه وتعالى عندما يتناول جملة من المبادئ التي يتعين علينا الإحاطة بها إنما تركنا الله سبحانه وتعالى وفق صياغة خاصة تتطلب من كل واحد منا أن يتوفر على جهد خاص حتى يستطيع من خلال ذلك أن يصل إلى ما يطمح إليه من البعد المعرفي في القرآن الكريم.

لقد كان بمقدور الله سبحانه وتعالى أن يصوغ القرآن الكريم جملة مبادئ واضحة وجاهزة لا لبس فيها ولا غموض ولكنه سبحانه وتعالى لحكمة خاصة جعل هذا القرآن الكريم محفوفاً بجملة ظواهر علمية وفنية وتعبيرية وترك لنا نحن القراء فرصة التوفر على دراسة هذه الجوانب؛ ولذلك يتعين علينا كما كررت يتعين علينا أن نوفر جهداً كبيراً لدراسة هذه القضايا المرتبطة بالقرآن الكريم سواء كانت هذه الظواهر أو القضايا مرتبطة بالأحكام الشرعية أو كانت مرتبطة بالأحكام العقائدية أو كانت مرتبطة بالأحكام الأخلاقية.

إنما نود أن نؤكد عليه ونشدد حوله هو أن كل واحد منا يطلب منه أن يتوفر على دراسة خصائص القرآن الكريم حتى يستطيع من خلال وقوفه عند هذه الخصائص أن يتبين ما يتضمنه القرآن الكريم من مبادئ ليست مصاغة بشكل واضح كل واحد بصيغة كما قلنا وفق صيغ متنوعة ببعضها من الوضوح بمكان كبير وبعضها من الضبابية بمكان أيضاً وبعضها بين بين ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى أوكل للأربعة عشر معصوما (عليهم السلام) أن يتوفروا على دراسة هذه الجوانب ليقدموها لنا من خلال ما ألهمهم الله سبحانه وتعالى من معرفة خاصة لهذا الجانب من هنا فإن القرآن الكريم يتعين عليه عندما يدرس هذا النص الخالد عليه أولاً أن يعتمد على ما ورد من

الأربعة عشر معصوماً (عليهم السلام) حيال مطلق النصوص المرتبطة لتفسير القرآن الكريم أو بتوضيح ما غمض منه أو بكشف الأسرار الباطنية فيه.

وعليه ثانياً أن يتوفر أيضاً على الدراسات التي قدمها الموروثون والمعاصرون حتى يتكون لديه أو بالأحرى حتى تتكون لديه خبرة ثقافية تتصل بهذا الجانب.

وثالثاً عليه أن يقف بنفسه عند بعض الظواهر التي تتطلب ذوقاً فردياً خاصاً أو لنقل ذوقاً فنياً خاصاً يتصل باللغة وأشغالها ما دام القرآن الكريم كما قلنا قد نزل وهو يحمل بعداً إعجازياً لكي يثبت كونه رسالة من الله سبحانه وتعالى من هنا ينبغي علينا أن نكون حذرين كل الحذر من أن نتحدث عن جانب من جوانب القرآن الكريم دون أن نتأكد من صحة ما نذهب إليه من وجهة نظر.

وفي ضوء هذه الحقائق نتقدم الآن لنحدثكم عن مادة علوم القرآن وتاريخه ونطمح منكم بطبيعة الحال أن تصغوا جيداً لما يرد من حديث يتصل بهذا الجانب كما نرجو منكم أن تتوفروا أيضاً على قراءات خارجية تضيء لكم الأسباب التي سوف تقفون عند جانب منها إن شاء الله.

ولعل أول ما ينبغي أن نقف عنده هو ظاهرة الوحي وقضاياه ولعلكم تتساءلون عن السبب الذي يدعونا ان نتحدث عندما نتحدث عن القرآن الكريم ما هو السبب الذي يدعونا إلى أن نستهل حديثنا عن النص القرآني الكريم بالحديث عن الوحي وقضاياه وهذا السؤال له أهمية كبيرة لأن الحديث في الواقع عن القرآن الكريم أو عن أي موضوع آخر ينبغي أن يكون متناسقاً ومتآلفاً من حيث موضوعاته حتى تتجلى الحقائق بوضوح لدى القارئ.

وفي هذا السياق أي في سياق الحديث عن الوحي وقضاياه نقول اعتاد المعنيون بعلوم القرآن الكريم أن يتحدثوا كما قلنا أولاً عن ظاهرة الوحي وقضاياه بصفة أن

الوحي هو الوسيلة أو القناة الموصلة لمبادئ الله تعالى إلى البشر فبما أن رسالة الأنبياء أو الرسل (عليهم السلام) هي توصيل مبادئ الله تعالى إلى الآخرين حينئذٍ فإن الوسيلة أو القناة الموصلة للمبادئ المذكورة قد جعلها الله سبحانه وتعالى متمثلة في شخصيات مصطفاة يوحي لله سبحانه وتعالى إليها بتوصيل تلكم المبادئ متمثلة في هذه الوسيلة أو القناة التي أشرنا إليها.

وقبل أن نتحدث عن ظاهرة الوحي ينبغي علينا أن نقدم تعريفاً لها حتى تتجلى لنا الظاهرة بشكل أكثر وضوحاً بالنسبة إلى الوحي يمكننا أن نعرف ذلك بقولنا أنه هو الإلهام أو التلقي الذي يتحسسه الشخص في خاطره أو قلبه أو أذنه متمثلاً في فكرة أو ظاهرة ترد على ذهنه دلالياً أو لفظياً أي معنا أو لفظاً كما لو ألهم أحدكم مثلاً بفكرة هي أن يتهيأ لسفر أو لاستقبال زائر أو لممارسة عمل ما كالوقوف عند جهاز الانترنت مثلاً لاستماع هذه المحاضرة كل ذلك ممكن أن نستشهد به كأمثلة واضحة بالنسبة إلى معنى الإلهام لغوياً ويمكننا أن نستشهد عملياً بجملة ما ورد في القرآن الكريم مثلاً من الإشارة إلى الإلهام بمعناه العام بطبيعة الحال وليس بمعناه الخاص الذي سنحدثكم عنه بالنسبة إلى النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) من ذلك مثلاً إلهام الله سبحانه وتعالى لأم موسى (عليه السلام) بأن تقذف ولدها في البحر لينجو من القتل أو إلهام الله سبحانه وتعالى إلى الملائكة حينما أوحى سبحانه وتعالى بكل سماء أمرها أين الملائكة لممارسة العبادة ومنه أيضاً مثلاً إلهام الله سبحانه وتعالى للنحل بأن تتخذ من الجبال بيوتا ومن الشجر ومن الطبيعي أيضاً أن هذا النمط من الإلهام أو الوحي يظل مطبوعاً بسمات متفاوتة من موقف إلى آخر فالإلهام أو الإيحاء للأنبياء (عليهم السلام) يختلف في نمطه عن الإلهام للبشر العادي والإلهام للمعصومين (عليهم السلام) يختلف عن سواهم وهكذا حيث أن الإلهام للشخصيات المصطفاة يختلف بالضرورة عنهم بالنسبة إلى الشخصيات العادية والأمر نفسه بالنسبة إلى إلهام البشر واختلافه عن إلهام الملائكة أو إلهام الطير مثلاً ومما لا شك

فيه أن ثمة إلهاماً عاماً للبشرية هو ما أوضحه النص القرآني الكريم بجلاء حينما قال عن النفس (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها) ومع أن هذا النمط من الإلهام لا يرتبط مباشرة بالحديث عن الإلهام الذي نريد أن نتحدث عنه بالنسبة إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إلا أن هذه الظاهرة في تصورنا لا تخلو من فائدة حينما نشير من خلالها إلى هذا المعنى العام للإلهام فإن الإشارة القرآنية الكريمة إلى أن النفس ألهمها الله سبحانه وتعالى فجورها وتقواها يعني أن الله سبحانه وتعالى جعل البشر جميعاً يتحسسون معاني الخير والشر حتى خارجاً عن عمليات التعلم الاجتماعي أو التنشئة الاجتماعية أو التربية الاجتماعية بحيث أن الشخصية المنعزلة عن السمع أي الشخصية غير مسلمة وغير الموحدة تتحمل في الواقع مسؤوليتها في معرفة الخير والشر حتى لو لم تخضع لأية منبهات خارجية تشير إليها لمعاني الخير أو معاني الشر.

ونحن في الواقع لا نحتاج للاستشهاد بنصوص متنوعة تشير إلى هذا المعنى حتى بالنسبة إلى العضويات غير الإنسانية كما أشرنا من حيث الإلهام المرتبط للملائكة والإلهام المرتبط بسواهم حيث ورد في الآية الكريمة القائلة (وأوحينا بكل سماء أمرها) يشير المفسرون في أحد وجوه هذه الآية الكريمة بما قلناه وهو الأمر للممارسة العبادية بالنسبة إلى الملائكة.

وما يعنينا في الواقع هو ما يرتبط بالإنسان ومنه كما قلنا إلهام الخير والشر وما تترتب عليه من المسؤولية لنطاق السلوك البشري بنحو عام وليس بنطاق السلوك الإسلامي فحسب.

فمثلاً إن القتل والسرقة أو الحيلة تظل مفردات من السلوك الملهم عند أية شخصية بشرية من حيث الاتسام بالسلوك الشرير أو العكس يستوي في ذلك أن تكون هذه

الشخصية ذات بعد معرفي أو تكون جاهلة في ذلك أن تكون صغيرة أو كبيرة مؤمنة أو غير مؤمنة إلى آخره.

ويدخل في الواقع في هذا النطاق ما يطلق عليه بالبعد المعرفي العام للإنسان حيث أن الإلهام أو الوحي بمعناه الذي قلناه لغوياً يظل أحد مصادر المعرفة البشرية وهو أمر في الواقع لم تستطع البحوث التي توفر عليها علماء الاجتماع أو الفلسفة لم تستطع البحوث الأرضية التي تحدثت عن المجتمعات ونشأتها بإمكانية قيامها على التوازن حيث لم يستطع هؤلاء العلماء أن يخضعوا نظرياتهم الباحثة عن نشأة المعرفة البشرية من جانب وقيام المجتمعات على التوازن من جانب آخر لم يستطيعوا أن يفسروا هذا الجانب تفسيراً منطقياً بقدر ما يصدرون عن تقلصات متنوعة لا مجال للحديث عنها الآن كل ما في الأمر وددنا أن نشير إلى أن الله سبحانه وتعالى يلهم البشر بنوع عام بنمط من المعرفة هذا النمط من المعرفة يسمح لهم أولاً بأن يتعرفوا إلى معاني الخير والشر حتى يتحملوا مسؤولية سلوكهم ومن جانب ثانٍ يلهمهم ظواهر معرفية نسوية بطبيعة الحال تكون في الواقع أساساً لمعرفة أكثر تفصيلاً وهذا ما تتوفر عليه بطبيعة الحال رسالة الأنبياء (عليهم السلام).

وما نود أن ننتهي منه في هذا الجانب هو أن ظاهرة الإلهام أي إلقاء الله سبحانه وتعالى في ذهن الشخصية معنا معرفياً معنياً سواء أكان هذا المعنى يتصل بإلهام الخير أو الشر أو كان يتصل لإلهام معرفي آخر حينئذٍ فإن ما نود أن ننتهي منه إلى أن الإلهام بشكل عام أمر متوفر بالنسبة إلى شخصيات جميعها ولكن الإلهام الذي نريد أن نحدثكم عنه أو الوحي الذي نريد أن نحدثكم عنه بالنسبة إلى رسالة القرآن الكريم حينئذٍ فإن هذا النمط من الإلهام أو الوحي لا يختلف بطبيعة الحال عن الإلهام البشري العام كل ما في الأمر أردنا أن ندرك إلى دراسة الوحي القرآني الكريم لكي يكون الطالب على إحاطة إجمالية لهذا الجانب من البعد الإلهامي ولذلك نبدأ فنقول

إن المعنيين بهذا الشأن حينما يتحدثون عن الوحي فإنهم يتحدثون أولاً عن أشكال أو أنحاء الوحي على النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) مع بدء البعثة أو التكليف بإيصال مبادئ الله تعالى إلى البشر متمثلة في نبوته (صلى الله عليه وآله وسلم) من خلال الرسالة الإسلامية التي اطلع بها وفي هذا السياق يتفاوت الباحثون في الواقع في تحديد نمط الوحي أو نمط التواصل بين الله سبحانه وتعالى وبين رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) تبعاً لتفاوت النصوص الواردة في الكتاب الكريم وسنة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) والمعصومين (عليهم السلام) فبعض الباحثين يشير مثلاً إلى وجود أربعة أنماط من التواصل أو الوحي وهذه الأنماط الأربعة متمثلة:

- أولاً فيما يطلق عليه في الوحي المباشر.

- ثانياً بما يطلق عليه بالوحي من خلال الملك وهو جبرائيل (عليه السلام) مثلاً.

- وثالثاً من خلال ما يطلق عليه مصطلح التكوين وفي هذا السياق يستشهد بحادثة المعراج بالنسبة للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

- وأخيراً النمط الرابع من الوحي أو الإلهام وهو الوحي من خلال الرؤية.

إن هذه الأنماط الأربعة ومن أنحاء الإلهام أو الوحي يظل كما قلنا يرى الباحثون متفاوتين في الاقتناع بهذه الأنماط الأربعة أو بثلاثة منها أو باثنين منها أو بنمط واحد فحسب فهناك من يذهب إلى أن الوحي منحصر في أحد أشكاله فحسب ألا وهو الوحي بواسطة جبرائيل (عليه السلام) ويضيف فريق آخر إلى هذا الوحي بالواسطة يضيف إليه الوحي المباشر أيضاً وهناك فريق بطبيعة الحال يضيف النمط الثالث وهو التكليم من وراء حجاب ويستشهد في هذا الجانب بقضية المعراج وأخيراً هناك ما نضيف إلى هذه الأنماط الثلاثة النمط الرابع الذي أشرنا إليه ألا وهو الوحي من خلال الرؤية.

بيد أن السؤال المهم هو هل إن هذه الاتجاهات الأربعة من الممكن أن تصدر جميعاً عن ملاحظة صائبة بالنسبة إلى ظاهرة الوحي أم لا؟. نعتقد أن مناقشة هذه الاتجاهات من الممكن أن نصل من خلالها إلى ما يحقق القناعة لأحدها أو لاثنين منها أو لثلاثتها أو حتى لأربعتها.

وبالنسبة إلى الاتجاه الأول نبدأ فنتحدث عنه ونناقشه ونقصد به الاتجاه الدائم إلى أن الوحي ينحصر في نمط واحد هو الوحي المتمثل في وساطة جبرائيل (عليه السلام). وهذا الاتجاه في الواقع يقدم أكثر من دليل مسبق من النص القرآني الكريم ليدلل به على وجهة نظره حيث يستشهد بالعبارات المشيرة إلى جبرائيل (عليه السلام) أو مصطلح روح القدس أو مصطلح الرسول الكريم أو مصطلح الروح الأمين إلى آخر ما ورد من الآيات الكريمة التي تتحدث عن هذا الجانب وتشير إلى الوحي المباشر بواسطة جبرائيل (عليه السلام) من خلال المصطلحات التي استمعتم إليها.

من الآيات التي يستشهد بها في هذا السياق مثلاً قوله تعالى: (والصبح إذا تنفس إنه لقول رسول كريم ذي قوة عن ذي العرش مكين مطاع ثم أمين) وهذه الصفات أي الرسول الكريم والرسول ذي القوة والمكين والمطاع والأمين كلها سمات تتصل بجبرائيل (عليه السلام).

وهناك من الآيات أيضاً ما يشير إلى هذا الجانب مثل قوله تعالى: (والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى علمهم شديد القوى) وهذا يعني أيضاً أن جبرائيل هو القوي الذي أشارت الآية الكريمة إليه بالإضافة إلى وجود أحاديث بطبيعة الحال تشير إلى هذا المعنى أيضاً ولكن هل يمكننا أن نكتفي بما قدم هذا الاتجاه من دليل قرآني كريم على أن الوحي يتفرد بشكل خاص هو الوحي من خلال وساطة جبرائيل (عليه السلام) نعتقد من الوقوف عند هذا الدليل فحسب ليس من الصواب على الإطلاق ما دمنا نعرف جميعاً أن النص القرآني الكريم

يظل كما هو نلاحظ نصاً فيه إجمال وفيه عموم وفيه إطلاق وإلى آخره. وأن السنة الشريفة تلقي بإنارتها دون أدنى شك على كثير من هذه النصوص المجملة والمطلقة والعامة لكي تبينها وتخصصها وتقيدها.

ومن ذلك ما ذهب إليه الاتجاه الثاني وهو الاتجاه القائل بأن الوحي ينزل على محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وفق نمطين أحدهما الوحي غير المباشر أي الوحي بوساطة وهي وساطة جبرائيل (عليه السلام) كما لاحظنا وأما النمط الآخر فهو الوحي مباشرة كما يدل عليه الحديث الآتي مثلاً:

(قال الإمام الصادق (عليه السلام) كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إذا أتاه الوحي من الله وبينهما جبرائيل يقول هو ذا جبرائيل وقال لي جبرائيل إلى آخره وأما إذا أتاه الوحي وليس بينهما جبرائيل تصيبه تلك السكتة ويغشى لثقل الوحي عليه من الله عز اسمه).

إن هذا الحديث يشير إلى أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يتلقى الوحي وفق نمطين أحدهما الوحي بواسطة جبرائيل والوحي في مثل هذه الحالة يقترن باستجابة من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عادية ولكن إذا أتاه الوحي وفق الطريقة الثانية أي الوحي المباشر أي الإلهام المباشر من الله سبحانه وتعالى حينئذ يشير هذا الحديث كما تشير أحاديث أخرى متنوعة إلى أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) حينما يتلقى الوحي المباشر تصيبه الغشية أو السكتة أي يستجيب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) استجابة خاشعة حيال الله سبحانه وتعالى حتى أنه لتأخذه الغشية أو تأخذه السكتة كما ورد في الأحاديث بل إن بعض الأحاديث تشير إلى أن الاستجابة للسحب حتى على ناقة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حيث تكاد تلتصق بالأرض من شدة الثقل الذي يتوارد مع الوحي إن الأحاديث المشار إليها صريحة وواضحة كل الوضوح في أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يتلقى

الوحي وفق نمطين بالشكل الذي أوضحناهما لكن بالنسبة للاتجاه الأول الذي حصر الوحي في نمط واحد هل لديه إجابة على السؤال المتقدم وهو ماذا نصنع حيال النص الحديثي الذي تلوناه قبل قليل ونصوص أخرى لم نقرأها ما هي الإجابة التي يقدمها هذا الاتجاه؟

الإجابة تتمثل في ذهاب هذا لاتجاه إلى أنه لا معارضة أو لا تعارض بين الآيات الكريمة المشيرة إلى أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يتلقى الوحي بواسطة جبرائيل وبين الأحاديث التي تشير إلى أنه (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يتلقى الوحي وفق الطريقتين المشار إليهما.

يقول هذا الاتجاه أن الطريق الأولى وهي الوحي غير المباشر أي الوحي بواسطة جبرائيل إنما يكون بالنسبة إلى النص القرآني فحسب.

وأما النمط الثاني فلعل الحديث يشير إليه إلى نمط آخر من الوحي أو الإلهام ألا وهو ما يرتبط بالأحاديث القدسية مثلاً أو مطلق ما يلهم به النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

وحينئذٍ يكون الإلهام هو غير النص القرآني أي الإلهام المباشر يظل مرتبطاً بغير النص القرآني حيث أن النصوص متضافرة على أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أيضاً كان يتلقى الوحي من حيث التفسير والتأويل والشروح والتوضيحات لما ورد من النصوص القرآنية الكريمة.

فإذن يستخلص هذا الاتجاه أنه لا تعاضد بين هاتين الطائفتين من الإشارات إلى الوحي حيث ينحصر الوحي لجبرائيل أو بالأحرى ينحصر الوحي بواسطة جبرائيل إذا كان الوحي نصاً قرآنياً فحسب أما إذا كان الوحي نصاً تفسيرياً أو مؤولاً أو شارحاً إلى آخره حينئذٍ فلعله يرتبط أو بالأحرى لعله يتسق مع الحديث الذاهب إلى أن النبي

(صلى الله عليه وآله وسلم) كان يتلقى الوحي بطريقين وبهذا لا وجود للتعارض بين هذين النمطين من النصوص.

والحق أن هذه الإجابة فيها شيء من التكلف أو نستطيع الذهاب إلى أن هذه الإجابة هي في الواقع نمط مما يسمى بالجمع التبرعي أو التكليف التبرعي ولا شاهد له من النصوص إذ لا ضرورة البتة لأن يؤول هذا الحديث التأويل المشار إليه مع أن النص القرآني الكريم في إشارة قرآنية أوضحناها قبل قليل وإلى الآية القرآنية المشيرة إلى أن الله سبحانه وتعالى أي يكلم عباده المصطفين من خلال الوحي المباشر والوحي بواسطة الملك والوحي بواسطة التكليم إلى أخره.

حينئذٍ في الواقع لا نجد أي تعاضد البتة بين أن يكلم جبرائيل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) كواسطة بينه وبين الله حيناً وبين أن ينزل على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الوحي مباشرة حيناً آخر تبعاً لهذا الحديث والأحاديث الأخرى التي تتحدث عن الغشية وعن السكتة حيث لا ضرورة البتة إلى أن نقول أن الغشية أو السكتة هي تخص ما يرتبط بالنصوص المفسرة أو الشارحة أو المؤولة حيث لا شاهد لها من الأخبار أبداً مع ملاحظة أنه لا تعارض بين ذهاب القرآن الكريم إلا أن جبرائيل (عليه السلام) كان ينزل بالوحي على محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وبين الذهاب إلى أنه كان يصله الوحي حيناً آخر بشكل مباشر تبعاً لما أوضحه الحديث المتقدم وسائر الأحاديث ما دمنا قد أشرنا سابقاً إلى أن السنة الشريفة تلقي بإنارتها على النص القرآني الكريم الذي قد يجيء مجملاً أو عاماً أو مطلقاً الخ.

وبهذا يتبين لنا الآن ما يقدمه الاتجاه الثاني الذاهب إلى أن الوحي هو على نمطين النمط المباشر والنمط غير المباشر وهو الدليل الذي يقدمه الاتجاه الثاني وهو دليل يتسم بالتماسك ولا شك وهذا فيما يتصل بالاتجاهين الأولين.

وأما بالنسبة إلى الاتجاهين الثالث والرابع فإن دليلهما هو الاستشهاد بالآية القرآنية الكريمة المشيرة إلى أن الله سبحانه وتعالى يكلم بعض رسله تكليماً مباشراً وهذا ما يشير إليه الاتجاه الثالث من خلال هذه إلى أن الله سبحانه وتعالى قد كلم الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في حادثة المعراج وبالنسبة إلى الرؤيا فإن الاتجاه الرابع يشير إلى أن الرؤيا حصلت للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في الواقع قبل البعثة بثلاث سنوات بواسطة رؤيا خاصة أشرنا إليها في بدء محاضرتنا الحالية.

والحق أن هذا التفاوت يبن وجهات النظر لا يترك أثراً ذا بال على ظاهرة الوحي أساساً لماذا لأن المطلوب هو كما تعرفون ذلك جميعاً هو حصول القناعة بنزول الوحي على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قرآناً بهذا الشكل الذي بين أيديكم أي الموجود بين الدفتين كما يعبر عن ذلك سواء أكان ذلك بواسطة جبرائيل (عليه السلام) جميعاً أو قسم منه وسواء أكان القسم الآخر مباشرة أو تكليماً أو حتى رؤياً أو نمطين منهما أو هي الأنماط جميعها حيث أن المستهدف أو المطلوب هو نزول القرآن الكريم وحياً على محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وهذا كاف في التدليل عليه بأي واحد من الاتجاهات الثلاثة بالإضافة إلى الاتجاه المفروض منه ونعني به الاتجاه الذاهب إلى نزول القرآن الكريم بواسطة جبرائيل (عليه السلام) لذلك لا نجد أنفسنا حريصين كثيراً على أن نحسم الموقف بهذا الشكل أو بذاك ما دام الأمر لا يتطلب أمثلة هذا الحسم ولا يعكس أهمية ذات بال على اليقين العلمي والظاهرة القرآنية الكريمة وإنما حدثناكم بذلك لتقفوا على وجهات النظر التي يقدمها الباحثون في هذا الميدان.

والآن في نطاق ما يذهب إليه الاتجاه الأول أو ما تذهب إليه الاتجاهات جميعاً من أن الوساطة بين النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وبين الله سبحانه وتعالى هو جبرائيل (عليه السلام) نقول أن هذه الوساطة المجمع عليها من قبل الاتجاهات

جميعاً نود أن نقف عند هذا النطاق لنشير إلى أن النصوص في الواقع تتحدث وفق تفصيلات متنوعة بالنسبة إلى نمط هذه الوساطة أو بالأحرى بالنسبة إلى نمط تعامل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) مع جبرائيل (عليه السلام) وبكلمة أخرى كيف كان يتعامل أو كيف كان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يستجيب لجبرائيل (عليه السلام) عندما يلتقيه.

في هذا السياق تشير النصوص إلى تفصيلات متنوعة من هذه التفصيلات ما يرتبط بصورة جبرائيل (عليه السلام) أي المظهر الخارجي لشخصيته حيث تذهب هذه النصوص إلى أن جبرائيل (عليه السلام) مثلاً نزل مرتين بصورته الحقيقية حيث غطى الأفق بذلك.

وأما في الحالات الأخرى فكان من حيث المظهر الخارجي يبدو في صورة إحدى الشخصيات المعاصرة للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) والمصاحبة له ألا وهو شخصية يحيى الكلبي وكانت هذه الشخصية كما تشير النصوص أجمل شخصية في زمان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

ومن التفصيلات ما يرتبط بأسلوب تعامل جبرائيل مع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) حيث تقول المصادر المأثورة عن أن جبرائيل (عليه السلام) كان يستأذن على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وكان يجلس جلوس العبد.

ومن التفصيلات الأخرى ما تمت الإشارة إليها سابقاً وهو أنه (صلى الله عليه وآله وسلم) عندما كان يتعامل مع جبرائيل كان تعامله أو استجابته عادية جداً ولكنه عندما يتعامل مع الوحي المباشر كانت تلك الغشية أو السكتة تعتريه كما تمت الإشارة.

والمهم هو الآن أن نتساءل عن الدلالات التي تنطوي عليها هذه الأنماط من التعامل مع جبرائيل (عليه السلام) أو تعامل جبرائيل (عليه السلام) مع النبي (صلى الله عليه

وآله وسلم) هذا ما ينبغي أن نتحدث عنه أيضاً إلا أننا سنؤجل الحديث عنه إلى محاضرة لاحقة إن شاء الله والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

علوم القرآن

انتهينا في المحاضر السابقة من الموضوع الثاني من الموضوعات القرآن الكريم، ونعني به موضوع الإعجاز في القرآن الكريم، وكان الموضوع الأول الذي تحدثنا عنه هو الموضوع المرتبط بنزول القرآن الكريم وكيفية ترتيبه وجمعه ما إلى ذلك من قراءات ونحوها، وبهذا نكون قد تحدثنا عن قسمين من أقسام الموضوعات المرتبطة بالقرآن الكريم، ويبقى القسم الثالث وهو القسم الخاص بالمعرفة القرآنية، أو بالعلوم القرآنية، أو بالمادة القرآنية الكريمة.

وهذا الموضوع أي موضوع مادة القرآن، أو معرفة القرآن أو علوم القرآن يظل في الواقع من الاتساع بمكان كبير، ولكن في الآن ذاته يتعين علينا أن نتحدث باختصار عن هذا الجانب، وذلك لجملة أسباب منها أن القرآن الكريم في الواقع يظل كتابا إرشادياً يتضمن مجموعة من المبادئ وهذه المبادئ في الواقع رسمها القرآن الكريم من جانب، وطلع الحديث أو السنة الكريمة بتجليتها وتوضيحها من جانب آخر، وبكلمة أكثر وضوح، إن المبادئ التي رسمها الله سبحانه وتعالى، وطلب منا أن نلتزم بها هذه المبادئ هي في الواقع مبادئ مرسومة إما من خلال القرآن الكريم، وإما من خلال السنة الشريفة متمثلة كالسنة الواردة عن الأربعة عشر معصوما (عليهم السلام) وبما أن كلا من هذين المصدرين المشكلين لمعرفة مبادئ الله سبحانه وتعالى، يتآزران بنحو لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر مستقلاً حينئذ فإن الحديث عن أحدهما وهو القرآن الكريم ينبغي أن لا ينفصل إذا عن الحديث عن السنة الشريفة.

ولكن بما أن للسنة الشريفة ميادينها المعرفية الواسعة حينئذ فإن الحديث عن هذا الجانب يظل متنافيا أو منافي مع ما نستهدفه من الحديث عن القرآن الكريم من حيث معرفته ومن حيث تاريخه، لذلك سوف نمر بنحو عابر وسريع جدا في الحديث عن هذا الجانب لأن الموضوع هذا ينبغي أن يترك لمختلف أنماط المعرفة التي اطلع بها المعنيون بالشأن الإسلامي، حيث أن كلا من المبادئ المتصلة بالأحكام الشرعية، والمبادئ المتصلة بالأحكام العقائدية، والأحكام المتصلة بالأحكام الأخلاقية، يتطلع كل ضرب من المعرفة أو يتناول في الواقع المعنيون بشؤون هذه المعرفة أو تلك، يتناولون هذه الجوانب كلا بحسب اختصاصه عبر الحقول المتنوعة.

من هنا نكرر ثانية بأننا عندما نتحدث عن المادة القرآنية الكريمة سوف لن نتحدث عنها كمادة ينبغي التحدث عنها تفصيلاً بقدر ما هي التحدث عنها عبر الإشارات السريعة كما قلنا، وهنا لابد أن نكون ملمين بشيء عن الجانب المعرفي في القرآن الكريم من حيث مادته ومنهجه ولغته، ومما لا شك فيه أن القرآن الكريم بصفته ظاهرة إعجازية لها تميزها واستقلاليتها، كذلك فإن هذا التميز أو هذا الاستقلال وهذه اللغة تظل بدورها منفرزة تماما عما نألفه نحن البشر من لغات و مناهج ومادة معرفية، فبالنسبة إلى اللغة سبق أن لاحظتم كيف أن القرآن الكريم يتميز لغويا بجملة سمات.

السمة الأولى منها هي أن اللغة التي يتوكأ عليها ليست هي لغة علمية صرفة، ولا لغة فنية صرفة بقدر ما هي لغة تجمع بين اللغة العلمية بحسب مصطلحاتنا وبين اللغة الفنية، ولكن حتى هذا النمط من الجمع له استقلاليته، وله تميزه وتفرده بحيث أوضحنا في حينه ولا حاجة إلى الإعادة بقدر ما ينبغي علينا الإشارة العابرة والسريعة جدا، نقول أن اللغة القرآنية الكريمة كما لاحظتم تجسد نمطا لغويا لا يتوكأ على العلم فحسب، ولا على اللغة الأدبية فحسب، بل يتوكأ على كليهما ولكن وفق تميز وتفرد لا ينسحب على أي نمط من أنماط التعبير اللغوي الذي يألفه البشر، فهو من جانب

ليس علما ولا فنا، ومن جانب آخر ليس نمطاً شكليا كالمسرحية أو القصة أو الخاطرة أو المقالة أو الخطبة، ومن جانب ثالث ليس الشكل المزيج من هذه الأشكال جميعا، وفق لغة خاصة تجمع بين العلم والأدب أو بين كل من الأدب والعلم، بقدر ما هو كما لنا لغة خاصة لا يمكن أن يناسبها إلى أي من الأشكال المألوفة البشرية.

إنما نستهدف الآن من ذلك كله أنا بما نشير أن هذه اللغة تتميز بكونها لغة إعجازية متفردة متميزة ومستقلة كذلك فإن كلا من المنهج القرآني الكريم، والمادة القرآنية الكريمة أيضاً يظل كل واحدة منهما متميزة متفردة وتحمل السمة الإعجازية، وإذا أرنا أن نستشهد بالأمثل ما علينا إلا أن نذكركم بالضرب المعرفي الموجود أو المألوف بشريا، حتى نستطيع من خلال المقارنة أن نتبين ما هي المعرفة القرآنية الكريمة، وكيفية طرح هذه المعرفة، ومن ثم كيفية الإفادة منها.

كلنا يعلم أن المعرفة البشرية يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أنماط المعرفة البحتة كالرياضيات مثلاً، والمعرفة الطبيعية كالكيمياء والفيزياء، والمعرفة الإنسانية والتاريخ وعلم النفس وعلم الاجتماع والاقتصاد وما إلى ذلك، ويمكننا أن نضيف إلى ذلك نمطا رابعا هو المعرفة الفنية متمثلة في جملة أشكال، ومنها الفن الأدبي مثلاً، وهذا بدوره ينشطر إلى نمطين، الأدب الموضوعي الذي يتم إلحاقه أيضاً بالعلوم الإنسانية كنظرية الأدب والنقد الأدبي والبلاغة وما إلى ذلك، وأما الشطر الثاني فهو الفنون الذاتية متمثلة في الشعر وما إلى ذلك.

المهم في ضوء هذه التقسيمات للعلوم البشرية يمكننا أن نقارن الآن بينها وبين المادة المعرفية المطروحة للقرآن الكريم، إن المادة المعرفية في القرآن الكريم تماثل ما لاحظتموه بالنسبة إلى اللغة التي يتوفر القرآن الكريم عليها حيث قلنا انه حينا يتوكأ على اللغة العلمية، وحيناً على اللغة الفنية، وحينا ثالثا على المزيج بين اللغتين، الأمر نفسه هنا إن المادة المعرفة حينما يطرحها القرآن الكريم حينئذ لا

يطرحها كما نألف ذلك نحن البشر من خلال اللغة الخاصة بقدر ما يطرحها وفق نمط له استقلاليته وتميزه وتفرده تماما كاللغة الإعجازية التي تحدثنا عنها بشكل مفصل، إن اللغة العلمية حسب المنهج البشري كما نعرف ذلك جميعا تبدأ وفق لغة منطقية كالحديث أولاً من خلال التعريف بالظاهرة، ومن خلال البحث عن جذورها وتطورها والمقارنة بينها وبين الظواهر المماثلة لها.. الخ.

ومن خلال ذلك يتسم البحث العلمي بتبويب خاص وبترتيب خاص من خلال الأبواب والفصول والملاحق وما إلى ذلك، كل ذلك نعرفه جميعا، ولكن هل أن القرآن الكريم عندما يطرح مادة معرفية سوف يطرحها وفق هذا المنهج، كلا بطبيعة الحال، إذا القرآن الكريم استقلاليته تفرده وتميزه، وهذا ما نود أن نؤكده أكثر من مرة لأسباب كثيرة ومنها ما نريد أن نطرحه الآن وهو أننا كبشر وظفنا الله سبحانه وتعالى لممارسة الخلافة في الأرض تبعا لقوله تعالى (ما خلقت الجن الإنس إلا ليعبدون)، حينئذ فإن الممارسة العبادية أو الخلافية تقترن دون أدنى شك بعملية اختبار واضحة كقوله تعالى الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم الإبتلاء والاختبار يظل هو الظاهرة التي تمرر التجربة البشرية من خلالها وأمر من الوحي بمكان، حينئذ فإن أحد موارد هذا لاختبار هو الاختبار العلمي أو الثقافي حيث أن الله سبحانه وتعالى كان بمقدوره مثلا أن يرسم لنا مبادئه التي يطالب بأن يلتزم بها، كان بمقدوره تعالى أن يرسمه لنا وفق بنود واضحة كل الوضوح لا يحتاج إلى التأليف العلمي والى أية جهود ثقافية.

لقد كان بمقدور القرآن الكريم مثلا أن يطرح في نطاق ما هو عقائدي المسائل التي تردم كل خلاف وهكذا بالنسبة إلى المسائل الفقهية، وهكذا بالنسبة إلى المسائل الأخلاقية إلا انه سلك طرائق متنوعة تركها لنا نحن المعنيين بالشأن الثقافي أن نتوفر على دراستها من حيث اللغة والمنهج والمادة وما إلى ذلك، على سبيل المثال إن كل واحد منا يعرف أن الأحكام الفقهية التي رتبت حاليا كالباب المتصل مثلاً بالطهارة والصلاة والصوم والحج والزكاة والخمس وما إلى ذلك، هذه الأبواب التي رتبها

ومنهجوها دون أدنى شك، إنما تلقفوا مادتها الأصلية من الكتاب والسنة ثم اضطلعوا بصياغتها بهذا النحو العلمي الذي تعرفونه، كما قلنا كان بإمكان أن يتوفر القرآن الكريم أو الحديث الشريف على صياغة هذه المبادئ علمياً ولكنه تركها لنا نحن المعنيين بهذا الشأن ليشكل هذا النمط من التكليف واحداً من أشكال الاختبار الإلهي، هنا لا نجد معنا البتة عندما نتحدث عن المادة المعرفية في القرآن الكريم لا نجد معنى أن نتحدث عن العلم أو المنهج وما إلى ذلك، بقدر ما ينبغي أن نتحدث عن المبادئ فحسب، وكما قلنا أن المبادئ المعرفية في القرآن الكريم تصب في أنحاء مختلفة إلا أن هناك ثلاثة محاور هي المحور الفقهي، والمحور العقائدي، والمحور الأخلاقي، وهذه المحاور كما هو واضح تجسد في الواقع أسلوب تعاملنا مع الظواهر المشار إليها، أي المبادئ التي رسمها الله سبحانه وتعالى لنا حتى نلتزم بتنفيذها، ولكن مقابل هذه المحاور الثلاثة مادة معرفية لها حيادها بيد أن هذا الحياد العلمي ينبغي أيضاً أن يوظف عبادياً بالنحو الذي يوظف أيضاً المحور الأخلاق أو المحور الفقهي أو المحور العقائدي.

وهذه المادة العلمية المحايدة تتمثل كما أشرنا سابقا تتمثل في ضروب من المعرفة التي اعتاد البشر أن يقسمها إلى علوم بحتة وعلوم طبيعية، إذ أن هذه الأنماط من العلوم تحمل طابعا حياديا كعلم الفلك مثلا أو علم الطب وحينئذ فإن التعامل مع هذه المادة المعرفية يظل حاملا طابعه الحيادي بيد أن الوظيفة العبادية للشخصية الإسلامية ينبغي دون أدنى شك أن توظف حتى هذا المبدأ الحيادي، توظفه من أجل المبدأ الإسلامي، أي توظف المعرفة الفلكية أو الطبية توظفها من أجل تمرير الأهداف الإسلامية المتمثلة في تقديم الخدمة البشرية من خلال استثمار أو الإفادة من هذه العلوم.

على أية حال في هذا النطاق وهو النطاق العلمي الصرف نجد أن القرآن الكريم طرح ظواهر متنوعة تتصل بهذا الجانب، وقد توفر كثير من المعنيين أو المختصين بشؤون

هذه المعرفة توفروا على دراستها من خلال القرآن الكريم، وأثبتوا بما لا يتطرق الشك الظاهرة الإعجازية، أي الظاهرة المتصلة بالإعجاز العلمي الصرف، وفي هذا النطاق يمكننا أن نقول بان المعنيين بالبحث القرآني الكريم عندما تناولوا علوم القرآن وتاريخه أيضاً طرحوا هذه المسألة وجعلوها جزءا من المسائل المتصلة بعلوم القرآن، بيد أن الملاحظ بان المعنيين بهذا الشأن قد انشطروا إلى نمطين أحد هذين النمطين يذهب إلى تخطئة هذا النحو من البحث العلمي والضرب الآخر يقف على ضده تماما، حيث يرى هذا الفريق الأخير أن الإعجاز العلمي من القرآن الكريم ينبغي أن نتوفر عليه حتى نثبت المشروعية التامة لرسالة الإسلام، وذلك من خلال الإشارات العلمية التي تضمنها القرآن في مختلف الميادين، وهذا ما يحقق تعميقاً لإيمان الشخصية بالإسلام ولكن مقابل هذا النفر من الباحثين وقف نمط آخر منهم يقرر بان العلم ما زال خاضعا للتطور وان إثبات حقيقة علمية من الحقائق إذا تمت من جيل ما فسيأتي جيل آخر وسيثبت العلم خطأ تلك النظرية، وحينئذ إذا قدر لنا ان نطبق المبادئ العلمية الموجودة كونيا نطبقها في ضوء ما ورد في القرآن الكريم حينئذ فإن العلم إذا خطأ هذه النظرية أو تلك، حينئذ فإن الطعنة تقع في القرآن دون أدنى شك، ويستشهدون على سبيل المثال بالظاهرة الفلكية التي كانت بالنسبة إلى علم الهيئة أو الفلك قديما تختلف تماما عما اكتشفه الفلك أو العلم الحديث، وهكذا بالنسبة إلى مسائل تبقية تحقق خطأها في الجيل المعاصر بالنسبة إلى الجيل الماضي وهكذا.

المهم أن هذين المحورين أو هذين النفرين من الباحثين اللذين يقف كل واحد منها ضد الآخر يجعلنا نتحفظ في الإشارة إلى هذه الجوانب، ولكن مع ذلك يكفي من حيث التوكأ على الظاهرة العلمية أن يعتمد مثلا على الظواهر التي تحققت علميا في الأجيال جميعا بالرغم من التطور العلمي، حيث أن التطور العلمي لا يعني أن كل ظاهرة هي خاضعة للتطور بالضرورة أن هناك ظواهر أخذت طابع الثبات وهناك ظواهر تأخذ طابع التغير، وفي ضوء هذا من الممكن أن يتوفر المختص بهذا الضرب

من المعرفة على الإشارة فحسب على ما هو يمثل ثابت ما مقابل ما يمثل المتغير، وإذا تركنا هذا الجانب العلمي واتجهنا إلى الجوانب الأخرى نجد أن من بين الظواهر التي يتوفر الباحثون على دراستها هو الجانب الإنساني، أي العلوم الإنسانية المتمثلة في علم التاريخ والاجتماع والنفس والاقتصاد والسياسة والإدارة وما إلى ذلك.

ونحن نعتقد أن الحديث عن هذه الجوانب سوف يكتسب أهمية خاصة على عكس ما لاحظناه بالنسبة للجوانب العلمية البحتة وذلك بسبب ارتباط هذه العلوم ارتباطا وثيقا بما يطرحه الإسلام من مبادئ تتصل بالمحاور الثلاثة التي أشرنا إليها، بصفة أن كلا من علم النفس مثلا يتناول التركيبة البشرية وطريقة استجابتها للظواهر وأن علم الاجتماع يتناول المجتمع الإنساني، وهكذا بالنسبة إلى علم السياسة والإدارة وما إلى ذلك كل هذه الضروب من المعرفة تظل متصلة اتصالا وثيقا بالمحاور الثلاثة التي وظفنا بالالتزام لها من هنا يكتسب هذا الحديث طابعا له أهميته، لذلك نجد أن المعنيين بهذا الشأن قد توفروا بدورهم على دراسة القرآن الكريم من خلال هذه الضروب من المعرفة الإنسانية، من هنا إذا أتيح لنا أن نتحدث عن المعرفة القرآنية الكريمة، أو المادة المعرفية في القرآن الكريم يحسن بنا أن نتناولها من خلال هذه المحاور الثلاثة أي المحور الفقهي والعقائدي والأخلاقي على أن نصل بينها وبين ضروب المعرفة الإنسانية، التي أشرنا إليها متمثلة في علوم النفس والاجتماع والتاريخ و..الخ، حيث أن الباحثين الذين تناولوا موضوعات القرآن الكريم إنما تناولوها من خلال هذه المحاور، أو ما أن يتم التباشر مباشرة من خلال المختص بالفقه أو العقائد أو الأخلاق أو يتناولها المعنيون بالمعرفة الإنسانية في العلوم المشار إليها بحيث يتعرضون للنصوص القرآنية الكريمة، التي تتناول جانب النفس أو الاجتماع أو السياسة أو الاقتصاد وما إلى ذلك، من هنا سوف نمر عابرا أيضاً ولا نفصل الحديث عن هذه الجوانب لأن الحديث عن كل جانب من هذه الضروب من المعرفة من الممكن أن يتناول من خلال عشرات المؤلفات كما هو واضح، على سبيل

المثال في ميدان علم النفس، إن علم النفس عندما يتناوله باحث في القرآن الكريم يمكنه أن يتناول الخطوط العامة التي تعرض لها النص القرآني الكريم في التركيبة البشرية، ولكن الباحث في هذا المجال لا يكتفي بالإشارة العابرة التي ورد القرآن الكريم عبرها بقدر ما ينبغي عليه أن يفصل كل ما يرتبط بهذا الموضع من تفصيلات متنوعة يتناولها عشرات المؤلفات وليس مجرد سطور أو صفحات تتناول بهذا الشكل أو بذاك، والأمر نفسه بالنسبة إلى ما يرد في سياق علم الاجتماع وعلم الاجتماع وعلم السياسة وعلم الإدارة وعلم الاقتصاد.. الخ.

المهم يمكننا أن نتحدث عن هذه المحاور الثلاثة وان نربطها بما توفر عليها الباحثون من طرح خاص على أن يتم العرض سريعا لهذه الجوانب ونبدأ ذلك بالحديث عن الجانب الفقهي وهذا ما ندرجه ضمن عنوان القرآن والمحور الفقهي في هذا السياق ينبغي أن نذكر الطالب بأن القرآن الكريم يحتوي من حيث المادة الفقهية على ما قدره المعنيون بشؤون البحث الفقهي حوالي الخمسمائة آية تصل بمختلف الأحكام الفقهية، ومن البين أن النص القرآني الكريم حينما يطرح مادة فقهية فإن هذا الطرح يظل بالشكل الذي أوضحناه في هذه المحاضرة وفي محاضرات سابقة، من أن النص القرآني الكريم لا يطرح المادة وفق الترتيب الذي يطرحه المعنيون بالبحث الفقهي بقدر ما يطرح المادة ضمن سياق خاص ويترك لنا نحن المعنيين بالبحث الفقهي أن نمارس عملية خاصة لاستخلاص الحكم الفقهي سواء أكان ذلك من خلال النص القرآني الكريم و خلال النص الحديثي الشريف، والمهم في الحالات جميعا من الواضح أن نذكركم بان القرآن الكريم عندما يطرح المادة الفقهية لا يطرحها بجميع مستوياتها من جانب ولا يدخل في التفصيلات من جانب ثان، لذلك فإن المادة الموجودة في القرآن الكريم فقهيا ينبغي أن تعرض في ضوء السنة الشريفة متمثلة في ما يرد عن الأربعة عشر معصوماً (عليهم السلام) بالإضافة إلى أدلة أخرى رئيسة أو ثانوية لا نريد أن نتحدث عنها الآن.

إنما نستهدف الإشارة فحسب إلى أن ثمة صلة مهمة جدا بين المادة الفقهية في القرآن الكريم وبين المادة الحديثية الشريفة وأن هذه الصلة بينهما من الوثاقة بمكان حيث لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر وبما أن الدخول في تفصيلات هذا الجانب، يندرج ضمن البحث الأصولي مما لا نعنى به الآن، حينئذ ندع هذا الجانب لنكتفي بالإشارة فحسب لوجود هذه الصلة هذا من جانب، ومن جانب آخر ثمة صلة أيضاً بين النص القرآني الكريم وبين المادة الفقهية من حيث الناسخ والمنسوخ، وصلة هذين الموضوعين بالتكيف الحكم الشرعي حيث تعرضنا إلى ظاهرة الناسخ والمنسوخ في حينه أي عند القسم الأول من موضوعات القرآن الكريم ونحدثكم الآن عنه أيضاً ولكن بشكل عابر، ما دمنا قد خصصنا الحديث عن الصلة بين القرآن الكريم وبين المادة الفقهية.

ومن جانب ثالث هناك صلة بين القرآن الكريم وبين المادة الفقهية من حيث الأداة الأصولية التي تتوكأ عليها حيناً من حيث استخلاصها من مادة القرآن الكريم ذاته، وأخيرا هناك صلة بين القرآن الكريم وبين المادة الفقهية من خلال عرض الأخبار المتضاربة على القرآن الكريم والأخذ بما يوافق السلطة القرآنية الكريمة.

وبالنسبة إلى المحور الأول ونقصد به علاقة النص القرآني الكريم بالمادة الفقهية نقول أن هذا المحور يتمثل كما أشرنا إلى وجود مئات الآيات التي تتناول حكما فرعيا ما، بيد أن هذه الآيات الكريمة إما أن تتناول بشكل عابر ومجمل جدا فالآيات المتصلة بالصلاة وبالخمس وما إلى ذلك، أو التي تتناول ذلك بشيء من التفصيل كآية المواريث مثلا، وخلا ل ذلك يظل الحديث عن صلة المادة الفقهية للقرآن الكريم مرتبطا كما قلنا بالسنة الشريفة حيث تتكفل السنة الشريفة بتوضيح ما هو مجمل وبتخصيص ما هو عام أو مقيد أو ما هو مطلق.. الخ.

وأما بالنسبة إلى المحور الثاني من العلاقة بين القرآن الكريم وبين المادة الفقهية، وهي المادة المتصلة بما هو ناسخ ومنسوخ، فقد سبق أن أشرنا إلى أن المعنيين بشؤون التفسير وبشؤون الفقه عندما يعرضون لآيات النسخ حينئذ ثمة اختلاف نجده بين هؤلاء الباحثين أي من حيث ذهاب بعضهم إلى أن النسخ هو متمثل في الكثير من الآيات القرآنية الكريمة قبالة من يذهب إلى أن ثمة آيات معدودة جدا هي المنسوخة وبين من يذهب إلى بين البين.

المهم يمكننا بنحو سريع أن نتحدث عن هذا الجانب فنقول أن الحديث عن الناسخ والمنسوخ يظل مطبوعا بجملة سمات منها أن بعضا من الآيات التي يتحدث الباحثون عن كونها منسوخة أو غير منسوخة، لا تترتب عليها أحكام مهمة، ومنها أن بعضا منها يحمل على الندب أو التخير أو مطلق الجمع العرفي، ومنها أن الكثير بخاصة الآيات التي تحدث الأقدمون عنها ترتبط بعلمية التخصيص أو التدقيق الواضحة بحيث أن خلط أولئك بين مفهوم التخصيص وبين مفهوم النسخ ولذلك نجد أن الباحثين المعاصرين لم يدرجوا العنصر المتقدم ضمن بحوثهم.

لكن في سياق ما نحن في صدده يمكننا الذهاب كما قلنا إلى أن قسم من الآيات المنسوخة لا ثمرة عملية للبحث عنها كآية (اتقوا الله حق تقاته) المنسوخة كما يقال بقوله تعالى (اتقوا الله ما استطعتم) فسواء أقلنا بنسخها أو بعدم ذلك، فإن النص الشرعي والعقلي يحكمان بان الشخص إنا يمارس التقوى بقدر ما يطيق ذلك ولا يمكن أن يتجاوزه لما هو حق التقاة إلا من اصطفاهم الله، بل يمكننا أن نذهب إلى ما ورد عن الأئمة المعصومين أنفسهم حينما قالوا إن الله لا يعبد حق عبادته لأن الطاقة البشرية محدودة قبال لا محدودية النعم العظمة التي يتسم بها الله سبحانه وتعالى وما ينبغي أن تستجيب الشخصية حيال ذلك.

ويمكننا أن نستشهد أيضاً بآية التوجه ونعني بها قوله سبحانه وتعالى (ولله المشرق والمغرب فاينما تولوا وجوهكم فثمة وجه الله إن الله واسع عليم) كما نسخت كما يقال بقوله تعالى (فولي وجهك شطر المسجد الحرام)، المعنيون بشؤون التفسير لأن النبي (صلى الله عليه وآله) كان في أول مبعثه يصلي إلى بيت المقدس وعندما هاجر إلى المدينة عيرت اليهود حيث قالوا قبلتنا فاستاء النبي (صلى الله عليه وآله) فأنزل الله عليه تعالى (قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنوينك قبلة ترضاها فولي وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم)..الخ.

فهنا نجد أن الباحثين يتفاوتون في ذهابهم إلى كون هذه الآية منسوخة حيث ذهب البعض كما قلنا إلى نسخها، وذهب البعض الآخر إلى أنها غير منسوخة ذاهبا إلى أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يوضح للمجتمع الرسالي آنئذ بأن الآفاق جيمعا لله سبحانه وتعالى، لا يفترق غربها عن شرقها وان لله سبحانه وتعالى ان أمر أولاً بالتوجه إلى البيت المقدس وله أن يأمر ثانياً بالتوجه إلى البيت الحرام وهكذا.

وذهب نمط ثالث إلى أن آية (لله المشرق والمغرب) تحمل على النافلة وليس على الفريق لاحظوا هنا أن البحث عن هذه المسألة يظل في الواقع يقترن بفنية كبيرة ما دمنا جميعا نعرف بأن الفريضة في الحالات جميعا ينبغي أن تكون متجهة إلى البيت الحرام، إلا في حالات خاصة وأما هذا فيكفي أن النصوص الواردة عن المعصومين (عليهم السلام) انهم سمحوا لنا بأن نصلي النافلة كيف شئنا، ومن ثم فإن السماح بالنافلة بهذا النحو ومقابل الفريضة التي ينبغي أن يكون التوجه فيها إلى البيت الحرام، نقول أن هذا المستوى من التوجه في سياق ما هو فريضة وما هو نافلة يظل محكما من خلال النصوص الواردة عن أهل البيت (عليهم السلام) وحينئذ فإن الحديث عن النسخ وعدمه لا يحمل أهمية كبيرة كما قلنا.

والآن إذا تجاوزنا هذا الجانب الذي قلنا عنه أنه لا يترتب عليه آثار الشرع ذو أهمية إذا تجاوزنا هذا الجانب أو هذا القسم من البحوث المتصلة بالناسخ والمنسوخ، واتجهنا إلى قسم آخر وهو ضئيل بدوره، ولكنه في الواقع غير خاضع لعملية النسخ دون أدنى شك، وهذا من نحو الآية التي تتحدث عن كفارة الصوم لمن يلاقي الشدة كالشيوخ وسواهم ممن يعاني من العطش الشديد، حيث تقول الآية الكريمة (وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين)، حيث ذهب قسم من الباحثين إلى نسخها من خلال آية (فمن شهد منكم الشهر فليصمه)، معللين ذلك بظاهرة التخيير بين الفدية في حالة عدم الصيام وبين الصيام، وهذا بالإضافة إلى من يحاول أن يلجأ إلى اللغة ليفرق بين عبارة يكون بمعنى أن يسعهم أي يقدرون عليه وبين يطيقونه بمعنى يتحملون ذلك مع شدة ومن البين انه لا قيمة لهذا الرأي ولا قيمة للرأي السابق الذي لاحظتموه، ذلك لأن اللجوء إلى أهل البيت (عليهم السلام) يحل لنا المشكلة بوضوح حينما يرد عنهم (عليهم السلام) أن المقصود من عبارة تطيقونه هو المعنى الثاني وهذا ما ورد عن الإمام علي (عليه السلام) والإمام الصادق (عليه السلام) بينما فسر ذلك بالشيخ الكبير والذي يأخذه العطاش.. الخ.